وهم رقم 37

بداية التشيّع بين لبنان وإيران

كثيراً ما يُنسب شيعة لبنان إلى إيران على اعتقاد أنها من أسهمت في تشيّعهم ونشر جذور الدين بينهم. ولكن التاريخ يذكر أنّ جبل عامل عرف التشيّع منذ القدم وأنّ هجرة علمائه إلى إيران هي من أسهمت بانتشار وتعميق التشيّع فيها. فهل كان لبنان أو جبل عامل بالتحديد هو الرائد في تشييع إيران أم أنّ إيران هي التي كانت الرائدة في تشييع شيعة لبنان؟



الجليل أبي ذر الغفاري
http://www.najaf.org

الوهم: إيران هي الرائدة في نشر التشيّع في لبنان.

الواقع: شيعة جبل عامل هم من أسهموا في تعميق جذور التشيّع في إيران.

ورد في كتاب «أمل الآمل في علماء جبل عامل» للحر العاملي أن تشيّع أهل جبل عامل هو أقدم من تشيّع غيرهم، وقد تم ذلك بداية على يد الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري(منذ أواسط القرن الأول) الذي نفاه الخليفة عثمان بن عفان إلى الشام ثم أخرجه معاوية إلى القرى القريبة التي كان من بينها جبل عامل. كانت تلك نقطة البداية لنمو بذرة التشيّع وازدياد تعلّق العامليين بالدعوة الشيعية.

يتحدث علي مروة في كتابه «التشيّع بين جبل عامل وإيران» عن تاريخ التشيّع في جبل عامل وتخريجه للعديد من العلماء الذين هاجروا إلى إيران لنشر التشيّع هناك. هؤلاء العلماء العامليون برأيه عملوا على تدعيم أسس التشيّع في الشعب الفارسي مرسّخين فيهم الولاية لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأهل بيته.

لم يبقَ العامليون بمعزل عن الحركات الشيعية العلمية في العراق، لأن أخذهم بالجعفرية مذهباً (نسبة إلى الإمام جعفر الصادق)، يفرض عليهم الأخذ برأي الأكثر علماً في أمور الدِّين. لذلك، فإنّ الفئات الدينية المقيمة في العراق بذلت الكثير من عنايتها العلمية في جبل عامل لتسهم في تطوير الفقه الشيعي وتيسير أمور الدين. كذلك، فإنّ وقوع جبل عامل في حكم الخلافة الفاطمية، في القرنين الرابع والخامس الهجريين، أسهم في تمتين صلاتهم الفقهية بالفقه الإمامي في الأزهر. كان من شأن ذلك أن يؤدي إلى إبراز صور كمركز علمي مميز في القرنين الخامس والسادس الهجريين.

كانت منطقة جبل عامل تساير الحركات العلمية القائمة في دمشق وبغداد ومصر، وتتأثر بها، وتأخذ عنها. وكانت أحياناً مركزاً علمياً يجتمع فيه فقهاء ومحدّثون وحفّاظ وأدباء. وكان جبل عامل قريباً من مراكز العلم في الشام والرملة وغزة والقدس، وفي هذه الحقبة من الزمن كان جبل عامل يمر بدور التطلع إلى المعرفة، متصلاً بحواضر العلم من جهة، ويقصده العلماء من جهة ثانية، وكانت الثقافة فيه محض دينية، حتى تمركزت الحركة الفكرية في الجبل وانتشرت في جميع أصقاعه في القرن السابع معتمدة على الرحلات العلمية، وعلى المدارس القائمة في البيئة العاملية.

ومضى على جبل عامل عصر كان فيه مقصداً لطلاب العلم والمعرفة، فقد هاجر إليه الكثير من العلماء كالمولوي عبد الله التستري، من أعاظم علماء إيران. وكانت جباع، وميس، وجزين، ومشغرة، وكرك نوح، وغيرها غاصة بالمدارس، وطلاب العلم، وتخرّج منها الألوف من أهم علماء الشيعة.

هكذا طاف العامليون في البلاد المعمورة بالعلم، ينشرون الثقافة ويأخذون المعرفة، ويساهمون في بناء الحضارة في أوسع نطاق، وبكل ما أوتوا من إبداع ومقدرة، وفي تطوافهم تزودوا بالمعارف، واكتسبوا العلوم المتنوعة، ثم رغبوا أن يكون موطنهم قبلة المعرفة، وبلداً علمياً مقصوداً.

أما بالنسبة لإيران، فقد شهد تاريخها قيام وسقوط دول عدة كان لها تأثير كبير في مسار هذا البلد، فكان العصر الإكميني سنة 550 ق.م.، والدولة الساسانية في القرن الثالث الميلادي نحو (211 م)، ثم الدولة البويهية التي كانت متحمسة للمذهب الشيعي والدولة الغزنوية، والدولة السلجوقية حيث اعتنق السلاجقة المذهب السني واضطهدوا الشيعة. وفي القرن الثالث عشر اكتسح المغول إيران وأسلموا معتنقين المذهب السني. وصولاً إلى الدولة الصفوية على يد الشاه اسماعيل الصفوي بحيث أخذت هذه الدولة تعمل على نشر المذهب الشيعي، فكانت الإستعانة بعلماء جبل عامل أمثال الشيخ محمد بهاء الدين العاملي الجبعي، المعروف بالشيخ البهائي، والمحقق الكركي، والسيد مير باقر الداماد وغيرهم. كما تمت الإستعانة بعلماء آخرين من منطقة بلاد الشام والعراق.

ويذكر علي مروة عن فيليب حتي في كتابه «لبنان في التاريخ»، أنّ الطائفة الشيعية في لبنان لم تقطع أسباب العلم، بل أنها احتفظت به على صعيد عالٍ. مما جعل مؤسس الدولة الصفوية في إيران، الذي وجد أنه من العسير أن يوفر للناس أئمة يعلّمون الناس حقيقة المعتقد الشيعي ويرسّخون مبادئه في نفوسهم، ووجد أيضاً أنّ الكتب غير متوفرة، فعمد إلى ملء الفراغ باستحضار علماء الشيعة من لبنان – جبل عامل. وقد غادر من لبنان جمهور من أولئك العلماء وذهبوا إلى إيران بدعوة، أو بغير دعوة، وقد كان من جملة من ذهب الشيخ حسين عبد الصمد العاملي الجبعي.

يقول الشيخ محمّد بن الحسن الحر العاملي: «إنّ تشيّعهم (العامليين) أقدم من غيره...لم يسبق أهل جبل عامل إلى التشيّع إلاّ جماعة محصورون من أهل المدينة[1]».

وتوثقت وتمتنت هذه العلاقة بشكل أساسي في عهد الخلافة العثمانية حيث كان ارتباط العامليين بالدولة الصفوية ناجم عن «الوحدة المذهبية التي تجمع بين الصفويين أعداء الدولة العثمانية في الشرق وبين الشيعة الإمامية الخاضعين للدولة العثمانية لا سيّما في مناطق الحدود بين الدولتين وبلاد جبل عامل[2]».

1 محمّد بن الحسن الحر العاملي: أمل الآمل (جزءان). مؤسسة الوفاء، بيروت 1983م، ج1/ص: 13.
2 علي ابراهيم درويش: المرجع السابق، ص: 32